

الزمن المعلق: مقارنة أنثروبولوجية لتجربة الانتظار في الحياة اليومية

The Suspended Time: An Anthropological Approach to the Experience of Waiting in Everyday Life

خيرة كتفي

¹ الجامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2-

kheira.ketfi@univ-constantine2.dz

تاريخ الاستلام : 2026/02/13 ؛ تاريخ القبول : 2026/03/26

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تحليل تجربة الانتظار بوصفها خبرة اجتماعية يومية تتجاوز بعدها الزمني الظاهر لتكشف عن ديناميات السلطة والمعنى والكرامة في الحياة المعاصرة. تنطلق الدراسة من سؤال رئيسي مفاده: كيف يتحول الانتظار من حالة ظرفية إلى نمط معيش يؤثر في إدراك الأفراد لذواتهم ولموقعهم داخل البنى المؤسسية؟ اعتمدت الدراسة مقارنة نوعية قائمة على الملاحظة بالمشاركة والمقابلات شبه الموجهة في فضاءات انتظار مختلفة. أظهرت النتائج أن الانتظار يشكل زمنًا معلقًا تُعاد من خلاله صياغة علاقات القوة، ويُختبر فيه الصبر كقيمة أخلاقية، بينما يُعاد تعريف الكرامة على ضوء الاعتراف أو غيابه. تكشف الدراسة أن الانتظار ليس فراغًا زمنيًا، بل ممارسة اجتماعية تنظمها المؤسسات وتُطبعها الثقافة

الكلمات المفتاحية: أنثروبولوجيا الانتظار؛ الزمن الاجتماعي؛ الحياة اليومية؛ الكرامة؛ السلطة

Abstract:

This study analyzes waiting as a social experience that exceeds its temporal dimension and reveals underlying dynamics of power, meaning, and dignity in contemporary everyday life. It addresses the following question: How does waiting transform from a temporary condition into a lived pattern shaping individuals' perceptions of themselves and their institutional position? Using a qualitative approach based on participant observation and semi-structured interviews conducted in various waiting spaces, the findings show that waiting constitutes a form of suspended time through which power relations are reproduced, patience is morally tested, and dignity is redefined through recognition or its absence. Waiting is not empty time but a socially organized practice embedded in institutional and cultural frameworks.

Keywords: waiting anthropology; social time; everyday life; dignity; power.

1- مقدمة:

يعد الانتظار واحداً من أكثر التجارب الإنسانية شيوعاً وإهمالاً في آن واحد؛ فهو يمثل ذلك الفراغ الذي يملأ حياتنا اليومية دون أن نمناه اسماً أو قيمة. غير أن النظرة الأنثروبولوجية المتفحصية ترى في الانتظار "مختبراً اجتماعياً" حياً تُكشف فيه عورات النظام البيروقراطي وتتجلى فيه موازين القوى الرمزية. لا يمكن مقارنة الانتظار بوصفه مجرد فترة زمنية عابرة أو خللاً تقنياً في مصلحة إدارية، بل هو "بنية اجتماعية" قائمة بذاتها؛ لأن هذا الاختزال يُغفل البعد الأكثر عمقاً في التجربة، وهو كون الانتظار في حد ذاته نمطاً من أنماط العيش الاجتماعي الذي يُعاد من خلاله إنتاج العلاقات بين الأفراد، كما تُعاد داخله صياغة موقعهم ضمن تراتبية غير معلنة تحكم توزيع الزمن والاعتراف والكرامة.

فالانتظار، كما يتجلى في الحياة اليومية داخل فضاءات مدينة قسنطينة ذات الكثافة العمرانية—مثل مراكز البريد، أقسام الاستعجالات الطبية، أو مقرات الدوائر الإدارية الخاصة بطالبي السكن الاجتماعي—لا يُختبر كـ"فراغ" بل كحالة "امتلاء ثقيل"؛ زمن يُفرض على الأفراد دون أن يمتلكوا مفاتيح تنظيمه أو تفسيره، وهو ما يحوله إلى تجربة قائمة بذاتها، لها لغتها، إيقاعها، وأخلاقياتها الخاصة. في هذا السياق، يصبح من الضروري استحضار ما طرحه Johannes Fabian في كتابه *Time and the Other*، حين يؤكد أن الزمن ليس إطاراً طبيعياً محايداً، بل هو حامل لعلاقات القوة (Fabian, 1983, p. 31)، أي أنه حامل لعلاقات القوة، يُستخدم لتحديد من يملك حق المبادرة ومن يُجبر على الانتظار. ويعزز Michel Foucault هذا التحليل في كتابه "المراقبة والمعاقبة" حين يبين أن "الزمن يتخلل الجسد ومعه كل ضوابط السلطة الدقيقة" (Foucault, 1975, p. 152)، "في إشارة إلى أن الزمن أداة لتشكيل الأجساد وضبطها، وهو ما يتجلى في وضعيات الانتظار الطويلة التي تُخضع الأفراد لإيقاع قسري يجعلهم في حالة انضباط دائم.

غير أن ما يميز تجربة الانتظار في هذا السياق هو أنها لا تُختزل في الخضوع، بل تنفتح على أشكال متعددة من التفاوض والتكيف، وهو ما يتطلب فهمه كـ"زمن معلق" يُعاد داخله تشكيل الوعي الاجتماعي بالسلطة والكرامة. وفي هذا الصدد، يعمل هذا الزمن المعلق كـ"عنف هادئ" يجرد الفرد من فاعليته ويحوّله إلى "شيء" مُلقى في قاعة الانتظار، مما يمس جوهر الكرامة التي ترتبط محلياً بمفهوم "النّيف" كقيمة تتعرض للاختبار أثناء وضعية "الطلب" أو الحاجة. وفي هذا الإطار، تكتسب أعمال Javier Auyero أهمية خاصة، حيث يصف الانتظار في سياقات بيروقراطية بأنه "آلية مركزية تنتج من خلالها الدولة الامتثال" (Auyero, 2012, p. 5).

أما Pierre Bourdieu، فإلقت في كتاب "تأملات باسكالية" إلى أن السيطرة على الزمن—وخاصة القدرة على تأجيل الآخرين—تمثل سلطة رمزية تمارس "تأجيلاً للاعتراف" (Bourdieu, 1997, p. 1).

(273)؛ فالشخص الذي ينتظر هو شخص "يطلب" اعترافاً، والمؤسسة تملك سلطة منح أو منع هذا الاعتراف عبر التحكم في إيقاع الزمن.

انطلاقاً من هذا الأفق النظري، يطرح هذا المقال السؤال التالي: كيف يتحول الانتظار من حالة زمنية ظرفية إلى تجربة اجتماعية تعيد تشكيل علاقة الفرد بالسلطة وبالكرامة؟

2. الإطار المنهجي والميداني

تحدد ملامح المقاربة الأنثروبولوجية لهذه الدراسة من خلال مسعى إثنوغرافي يغوص في تعقيدات الحياة اليومية، حيث اعتمدنا بشكل أساسي على "الملاحظة بالمشاركة" كأداة لاختراق بنية "الزمن المعلق". لم يقتصر دورنا على الرصد الخارجي، بل انخرطنا جسدياً ونفسياً كفاعلين داخل "الطابور" في فضاءات مدينة قسنطينة.

لقد امتد هذا الانغماس لفترة السنة أشهر الأخيرة من سنة 2025، وهي مدة سمحت لنا بإجراء مقابلات موجهة، نصف موجهة، ومفتوحة مع أفراد عينة الدراسة المتكونة من فاعلين اجتماعيين داخل هذه الفضاءات من فئات عمرية ومهنية مختلفة، رصدنا خلالها التغيرات المزاجية للعينة وذلك حسب الفصول والمناسبات (رمضان، الدخول المدرسي، أيام صب الأجور). ركزنا على "لحظات الذروة" حيث يبلغ التوتر أقصاه ويصبح "الانفجار الكلامي" أو "الشجار" مادة دسمة لفهم حدود الكرامة والاعتراف الاجتماعي، وهو ما يحيلنا إلى بنية "العنف الرمزي" المتخفي في الإجراءات (Bourdieu, 1993, pp. 215-220). قمنا بتدوين مذكرات ميدانية حول السلوكيات الجسدية، اللغة المستعملة، وأنماط التفاعل. وتم تحليل المعطيات وفق مقاربة تحليل موضوعاتي (Thematic Analysis)، حيث تم استخراج المحاور المتكررة: الجسد، الصبر، الإهانة، الدين، السخرية. لقد وقع اختيارنا على ثلاثة مواقع استراتيجية تمثل "نماذج حادة" للانتظار في الجزائر:

1. مراكز البريد (مركز "بالما" أو "الكديّة"): حيث يختبر المواطن تجربة حتمية من أجل السيولة المالية، وحيث يتحول "الرقم الرقمي" إلى أمل زائف أحياناً أمام تعطل الشبكة أو نفاذ السيولة.
2. مصالح الاستعجالات الطبية (المستشفى الجامعي بن باديس): هنا يمتدح زمن الانتظار بـ "زمن الألم". الملاحظة هنا رصدت كيف يتفاوض المنتظرون مع "الموت" و"المرض" في قاعات ضيقة، وكيف يتحول الحارس (Agent de sécurité) إلى قاضي يقرر من هو "الأكثر استعجالاً"، وهو ما يجسد ميكرو-فيزياء السلطة في أبسط تجلياتها المكانية.

- 3- مقرات الدوائر (السكن الاجتماعي): هذا الميدان هو الأكثر تعقيداً، حيث الانتظار ليس لساعات، بل لسنوات. "الطابور" الصباحي أمام باب الدائرة هو "برلمان شعبي" بامتياز، تُناقش فيه السياسة، الفساد، والعدالة الاجتماعية.

3- فينومينولوجيا الانتظار (الجسد، الزمن، والمكان الحسي):

3.1. الزمن بوصفه مجالاً للسلطة:

تكشف الملاحظة الميدانية الدقيقة داخل فضاءات الانتظار في قسنطينة أن الزمن لا يُعاش كخط مستقيم أو كتسلسل يمكن التنبؤ به، بل كحالة من التعليق المستمر؛ حيث يجد الفرد نفسه في وضعية بينية، لا هو داخل الفعل ولا هو خارجه، بل في حالة انتظار مفتوحة على احتمالات غير واضحة. هذا التعليق لا يعني غياب الزمن، بل على العكس، يعني حضوره المكثف، حيث يصبح كل تأخير محسوساً، وكل دقيقة محملة بتوتر الترقب. وقد عبّر أحد المشاركين عن هذه الحالة بقوله: "الوقت ماشي راه يبطأ... بصح راه يوقف في راسي"، وهي عبارة تكشف أن المشكلة ليست في الزمن الموضوعي، بل في كيفية عيشه، حيث ينفصل الإحساس الداخلي عن الإيقاع الخارجي.

ويتصل هذا الإدراك بشكل وثيق بسيمولوجيا الفضاء وهندسة المكان؛ فداءة المكان من كراسي محطمة وضيق القاعات وإضاءة باهتة تساهم في تعزيز الشعور بـ "رداءة المواطن". إن الانتظار على كرسي مريح يختلف جوهرياً عن الانتظار واقفاً أو على رصيف، حيث يتحول الحيز الفيزيائي هنا إلى مرآة تعكس قيمة الفرد لدى المؤسسة. وكما يذهب بيير بورديو (Bourdieu, 1997, p. 273)، فإن الانتظار يفرض على الأفراد اعترافاً ضمنياً بسيادة أولئك الذين يملكون قدرة جعلهم ينتظرون. ففي مصلحة السكن الإداري يُجبر المنتظرون على "افتراش الرصيف"؛ هذا الفعل في الأنثروبولوجيا يمثل قمة الاستلاب، حيث يفقد الجسد وقاره العمودي وينحني أمام سلطة الإدارة.

تعتبر 'تذكرة الرقم (Ticket) 'في بريد الكدية أو مصلحة السكن وثيقة 'عبور زمني'. لكن الملاحظة رصدت ظاهرة 'الرقم المعطل'؛ فغالباً ما يتوقف الجهاز أو يُعلن الموظف أن 'الريزو' (الشبكة) مقطوعة. هنا يتحول الزمن من 'زمن تقني' يمكن قياسه، إلى 'زمن غيبي' يتحكم فيه الموظف وحده. الموظف خلف النافذة يمارس سلطته عبر 'الصمت الإداري'؛ فهو لا يجيب على التساؤلات، بل يكتفي بإشارة يد 'انتظر'، وهذا الصمت هو أداة لإنتاج 'التبعية'. أما في 'الدائرة'، فإن الحارس لا يكتفي بتنظيم الدخول، بل يتحول إلى 'مترجم للسلطة'؛ هو من يشرح للمواطن البسيط 'لغة القانون' بلهجة متعالية، وهو من يملك حق 'تسلل' بعض الأشخاص (المعروفة) من الباب الخلفي. هذا الخرق لفيزيائية الطابور أمام أعين المنتظرين هو 'الذبح الرمزي' للعدالة الاجتماعية، مما يحول الانتظار إلى تجربة مريرة من 'اللاإنتماء'.

لا يُعاش الزمن بالطريقة نفسها لدى جميع الفاعلين الاجتماعيين. فهناك من يتحكم في المواعيد، وهناك من ينتظرها. هذا التفاوت في التحكم ليس تقنياً فقط، بل يعكس تراتبية ضمنية في توزيع القوة. يشير فوكو (Foucault, 1975, p. 152) إلى أن تأديب الأجساد لا يتم فقط عبر المراقبة، بل أيضاً عبر تنظيم الإيقاع الزمني للحياة اليومية. فالانتظار الطويل في فضاء مغلق، دون قدرة على المغادرة، يضع الجسد في حالة انضباط قسري. يوضح فوكو كيف أن "الجدول الزمني" هو أداة انضباطية تُخضع الأجساد. الانتظار في "الطابور" الجزائري هو امتداد لهذا الضبط؛ حيث يُجبر المواطن على اتخاذ وضعيات جسدية معينة (الوقوف الطويل، الجلوس على كراسي غير مريحة) مما يجعل جسده "مستباحاً" من قبل المؤسسة.

في هذا السياق، يمكن فهم الانتظار بوصفه شكلاً من أشكال "تعليق الفعل"، حيث يُجبر الفرد على التوقف دون أن يكون له دور في تحديد نهاية التوقف. يتحول الانتظار من "تأخير" إلى "فعل ممارسة سلطة"؛ إن المؤسسة (بريد، مستشفى، دائرة) حين تجبر الفرد على الانتظار لساعات، فهي لا تعطل وقته فحسب، بل هي ترسل له رسالة رمزية مفادها: "نحن نملك زمناك، إذا نحن نملكك".

3.2. الانتظار كخبرة معيشة وآليات المقاومة الرمزية:

خارج أسوار الإدارة، وتحديداً في المساحة الفاصلة بين رصيف الشارع وباب مصلحة السكن بقسنطينة، يولد ما يمكن تسميته بـ 'برلمان الرصيف'. هنا، يفقد الانتظار صفته الفردية ليصبح "فعلاً جماعياً"؛ يتبادل فيه المنتظرون "أرقام الملفات" وكأنها سير ذاتية للمعاناة. رصدنا كيف يتم 'تأريخ' الحياة عبر السكن: أنا دفعت الدوسي عام لي زاد ولدي، وذرك راهو عقب الباك وما بان والو'. الانتظار هنا يحول المواطنين إلى 'خبراء قانونيين عفويين'؛ يعرفون ثغرات المرسوم التنفيذي، وأسماء الموظفين، ومواعيد 'الخرجات الميدانية'. هذا التحول يتقاطع مع ما رصده خافيير أوييرو (Auyero, 2012, p. 112) حول تحول المنتظرين إلى "مرضى الدولة" الذين يكتسبون خبرتهم السياسية من واقع الطابور. أما السخرية في هذا البرلمان فهي "صمام أمان"؛ فعندما يضحك المنتظرون على إشاعة 'القائمة الجاهزة'، هم يمارسون "تطهيراً أرسطياً" (Catharsis) لمشاعر الغبن، محولين عجزهم إلى تفوق أخلاقي عبر التندر والسخرية.

غير أن الزمن المعلق لا يُترك في حالة فوضى كاملة، بل يُعاد تنظيمه عبر ممارسات اجتماعية غير رسمية تُنتج نوعاً من النظام الموازي داخل الطابور. ففي مراكز البريد، حيث يُفترض أن نظام التذاكر الرقمية يضمن عدالة الترتيب، تظهر ممارسات دقيقة تعيد توزيع هذا النظام بشكل مرن؛ مثل قيام بعض المنتظرين عند اضطرابهم لمغادرة المكان مؤقتاً بتسليم تذاكرهم لأشخاص آخرين، أو الاتفاق معهم على حفظ الدور، وهو ما يُحوّل الرقم من مؤشر زمني فردي إلى مورد اجتماعي قابل للتداول. وفي حالات أخرى، يتكفل فرد واحد بعدة تذاكر، يجمعها من أشخاص غادروا، ويحتفظ لنفسه بأقرب دور، بينما يحاول إعادة توزيع الأدوار الأخرى بطريقة تبدو عادلة ضمن السياق، وهو ما يكشف عن وجود "اقتصاد غير معن للزمن".

هذه الممارسات لا يمكن فهمها خارج الإطار الثقافي الذي يمنحها شرعيتها، حيث تُدعم عبر خطاب شعبي يعيد تأطيرها أخلاقياً، كما في العبارات التي تتكرر في قسنطينة: "ربي و عندو احبابو"، "الدنيا بالوجوه والآخر بالافعال" وهي عبارات تحمل دلالة مزدوجة، إذ تشير من جهة إلى أهمية العلاقات الاجتماعية في إدارة الحاضر، ومن جهة أخرى إلى وجود معيار أخلاقي أعلى يُرجى العدالة إلى مستوى آخر. بهذا المعنى، لا يكون التلاعب النسبي بالدور خرقاً للنظام بقدر ما يكون تفاوضاً ضمناً حوله، يعكس قدرة الأفراد على إعادة تشكيل الزمن المؤسسي بما يتلاءم مع واقعهم المعيش.

هذه الممارسات لا يمكن فهمها خارج الإطار الثقافي الذي يمنحها شرعيتها، حيث تُدعم عبر خطاب شعبي يعيد تأطيرها أخلاقياً، كما في العبارة التي تتكرر في قسنطينة: "الدنيا بالوجوه والآخر بالافعال"، وهي

عبارة تحمل دلالة مزدوجة، إذ تشير من جهة إلى أهمية العلاقات الاجتماعية في إدارة الحاضر، ومن جهة أخرى إلى وجود معيار أخلاقي أعلى يُرجى العدالة إلى مستوى آخر. بهذا المعنى، لا يكون التلاعب النسبي بالدور خرقاً للنظام بقدر ما يكون تفاوضاً ضمنياً حوله، يعكس قدرة الأفراد على إعادة تشكيل الزمن المؤسسي بما يتلاءم مع واقعهم المعيش.

3.3. الانتظار كخبرة معيشة لا كحالة نفسية:

يميل التحليل النفسي إلى حصر الانتظار في كونه استجابة انفعالية مرتبطة بالقلق، غير أن الأنثروبولوجيا تخرجه من حيز "المشاعر الفردية" لتعيد قراءته بوصفه "بناءً اجتماعياً" له منطقه الخاص. السؤال هنا ليس عما يشعر به الفرد، بل في المعنى الأخلاقي الذي يضفيه على صمته وسكونه؛ حيث يتحول الانتظار من مجرد "عطالة" إلى "فعل أخلاقي" يتطلب ممارسة فضائل معينة.

تتجلى هذه الخبرة في اللغة اليومية عبر استدعاء منظومة قيمية متكاملة؛ فكلمة "اصبر" المتداولة في الطابور ليست مجرد دعوة للسلبية، بل هي استحضار لنموذج "الإنسان الصبور" الذي يحول عبء الزمن إلى رصيد من القيمة الأخلاقية. إنها عملية "تأطير قيمي" تجعل من المنتظر شخصاً "يمتحن" جدارته في مواجهة عبثية الموقف. كما أن عبارة "درك توصل دالتك وتقتوت" تعمل كآلية لترميم المعنى في زمن يبدو عشوائياً، حيث يحاول الأفراد من خلالها خلق منطق داخلي لزمانهم المعلق، يربط بين الحاضر المرير والمستقبل المأمول.

إن الانتظار هنا يرتبط بالأمل كبنية وجودية؛ ولكنه يظل أملاً معلقاً ومحفوفاً بعدم اليقين كما يوضح كراپانزانو (Crapanzano, 1985, p. 45) ما يخلق حالة من التذبذب المستمر بين "الرجاء" كفعل إيجابي و"الإحباط" كاستنزاف للذات. هذا التوتر لا يُعاش كاضطراب نفسي، بل ك "وضعية اجتماعية بينية"؛ حيث يتم استهلاك طاقة الفرد لا في الفعل، بل في "تسيير زمن التوقف". وبذلك، يصبح الانتظار تجربة معيشة تعيد تعريف الذات من خلال قدرتها على البقاء في حالة الترقب دون الانهيار، محولة الزمن من مجرد تسلسل دقائق إلى مساحة للتفاوض مع الأمل والقدر.

3.4. ديناميات الجسد المترقب: سياسات الجندر وأخلاقيات الصبر والكرامة

إذا كان الزمن المعلق يُعاش أولاً على مستوى الإدراك، فإنه يتجسد بصورة أكثر كثافة على مستوى الجسد، الذي يتحول إلى حامل مباشر لتجربة الانتظار. فالحركات المتكررة، وتغيير الوضعيات، والنظرات الموجهة نحو "النافذة الزجاجية" (Le Guichet)، كلها تشكل لغة جسدية تعكس حالة التوتر وعدم اليقين. في هذا السياق، لا يكون الجسد مجرد متلقٍ سلبي، بل فاعلاً يحاول التكيف مع الإيقاع المفروض عبر حركات مجهرية دالة، مثل الاقتراب التدريجي من نقطة الدخول، أو مراقبة الآخرين لتقدير الموقع النسبي داخل الطابور.

وضمن هذا البعد الجسدي، تبرز أبعاد الجندر كمتغير حاسم؛ فالانتظار في الفضاء القسطنطيني ليس محايداً، بل هو "تجربة حسية" تُنحت آثارها بعنف على الأجساد. هنا، يتحول الجسد الأنثوي إلى رادار في حالة "استنفار بصري" دائمة؛ حيث تتجلى "ميكرو-إستراتيجيات" البقاء في تفاصيل دقيقة: تلك الحركة العصبية ليد تُحكم قبضتها على طرف "الخمار" أو "الجلباب" لترميم حيز شخصي مهدد، أو تلك الصرامة الجسدية لامرأة بلباس عصري تتبنى وضعية "تقاطع الذراعين" في حالة الوقوف، أو وضع حقيبة يدها فوق ركبتيها بإحكام في حالة الجلوس؛ لتشكل "متراًساً" يفصلها عن "الغاشي" (Gachi) "الذي يبتلع الخصوصية في قاعات البريد أو مصلحة السكن".

وفي قلب هذا الزحام، يكسر حضور "الحاجة" (السيدة المسنة) النسق الانضباطي؛ فجسدها يمنحها "رأسمال وقار" يتيح لها اختراق المسافات الفيزيائية بجراً، وانتزاع استثناء عفويّاً تحت مسمى "البركة" أو "الاحترام". هنا، تتدخل نظرة الموظف لتمنح "صك عبور جندي"؛ فبينما قد يُعطى اللباس المحافظ أولوية "السترة"، قد يحظى اللباس الأنيق بمرور "برقي" تحت مسمى الحداثة أو المكانة الطبقية، مما يجعل "هيئة الجسد" هي العملة الحقيقية للتفاوض على سرعة الاعتناق. أما في مصلحة الاستعجال (بن باديس)، فيأخذ الوصف بُعداً بيولوجياً؛ حيث يمتزج زمن الإدارة بـ "أنين الآخرين"، وتضطر النساء المرافقات لافتراض الأرض الباردة في حالة "ترقب حزين" تجعل من الانتظار تجربة إهانة جسدية صامتة.

وعلى أرصفة الدوائر، يبرز "الانتظار بالوكالة" كإستراتيجية لحماية الرأسمال الرمزي للعائلة عبر إرسال وسيط ذكري ليكون "درعاً زمنياً" يقاوم قسوة الزحام، بينما تنشأ في الداخل روابط "تضامن الغربيات"؛ حيث تذوب الفوارق البصرية في "تذمر تضامني" يحول الحديث الجانبي إلى "رئة" لتنفس الاغتراب الفضائي. غير أن هذه الألفة قد تصطدم بصرامة "الموظفة خلف النافذة" التي قد تتبنى "قناعاً ذكورياً" سلطوياً لإثبات مكانتها داخل النسق المؤسسي.

غير أن هذا التكيف الجسدي لا ينفصل عن بُعد أخلاقي يتمثل في "الصبر"، الذي يظهر في الخطاب اليومي كقيمة مركزية لتنظيم السلوك؛ فالصبر هنا ليس خياراً فردياً، بل شرطاً ضمناً للاندماج داخل الجماعة، حيث يُنظر إلى من يحتج أو يعترض بوصفه "غير صبور"، وهو توصيف يحمل حكماً أخلاقياً أكثر منه وصفاً سلوكياً. وتلعب الأمثال الشعبية دوراً أساسياً في تثبيت هذا الإطار، مثل قول: "بالرزانة تتباع الصوف"، الذي يربط النجاح بالهدوء، أو "القلقة من الشيطان"، الذي يُحوّل القلق إلى انحراف أخلاقي يجب تجنبه.

لكن خلف هذا الامتثال الظاهري، تظل مسألة الكرامة حاضرة بقوة، خاصة في لحظات خرق النظام أو غياب المعلومة، حيث يشعر الأفراد بأنهم غير مرئيين. وقد عبّر أحد المشاركين عن ذلك بقوله: "تستنى عادي... بصح كي ما يهدر حتى واحد معاك تحس روحك ماكش موجود"؛ وهي عبارة تختزل جوهر المشكلة في غياب "الاعتراف الاجتماعي" الذي يراه أكسل هونيث (Honneth, 1995, p. 121) منتجاً لشعور بالإهانة حتى في غياب عنف مباشر.

3.5. جغرافيا الألم: توصيف الفضاء الحسي في الاستعجالات:

في مصلحة الاستعجالات الطبية، لا يُقاس الانتظار بالدقائق، بل بـ "أنين الآخرين". الملاحظة الميدانية تكشف أن هذا الفضاء هو الأكثر "توتراً"؛ حيث يمتزج زمن الانتظار بـ "زمن الاستغاثة". هذا "الضجيج الحسي" (صراخ، حركة نقالات، نداءات الأطباء، ورائحة المعقمات النفاذة) يجعل من الانتظار "حالة استنفار بيولوجي"، حيث يشعر المنتظر أن كل ثانية تمر هي خصم من "رصيد الحياة". يتحول الانتظار هنا من مجرد تأخير إداري إلى "انتظار وجودي" وقلق، حيث يختبر الجسد أقصى درجات هشاشته أمام مؤسسة لا تعترف بخصوصية الألم. إن افتراض الممرات الجانبية والجلوس المطول على الأرض من قبل ذوي المرضى في الممرات الضيقة يمثل قمة التشييء الإنساني؛ حيث يتحول المرافق والمريض إلى "عالة" على الفضاء، مما يعكس غياباً حاداً لـ "الاعتراف الاجتماعي" الذي يراه أكسل هونيث في نسخة (Honneth, 1995, p. 121) منتجاً لشعور عميق بالإهانة والازدراء، حتى في غياب عنف جسدي مباشر. المؤسسة الصحية هنا، عبر صمت الموظفين أو جفاء الردود البيروقراطية، تمارس سلطة "التصنيف"؛ فهي لا تدير المرضى فحسب، بل تدير "أجساداً مترقبة" يتم ترويضها وإخضاعها، مما يحول الألم الخاص إلى مجرد رقم إداري بارد ضمن إحصائيات المصلحة اليومية.

4- سوسيولوجيا السلطة واستراتيجيات المقاومة الرمزية:

4.1. سلطة "الفرز" والحارس (Agent de sécurité):

في هذا الفضاء، يبرز الحارس كـ "حاكم مطلق" و"سيد البوابة" على بوابة قاعة الفحص؛ هو من يملك سلطة "التقديم والتأخير" بناءً على تقديره الشخصي لخطورة الحالة، أو بناءً على "المعرفة" والوجاهة. وقد رصدت الملاحظة الميدانية صراعاً رمزياً عند الباب؛ حيث يحاول المرافقون ممارسة "سلطة الاستعطاف" أو "سلطة الصراخ" لاختراق حاجز الانتظار. الحارس هنا لا ينظم "طابوراً"، بل ينظم "دخولاً" إلى منطقة النجاة؛ فعندما يغلق الباب ويقول: "اصبروا، الطبيب راهو لداخل مع حالة خطيرة"، فهو يمارس "عنفاً هادئاً" يترك البقية في حالة "تعليق وجودي" مرير، حيث تصبح المعلومة الطبية شحيحة ومقدسة، ومورداً نادراً لممارسة السلطة.

4.2. "الزمن الحيوي" مقابل "الزمن الإداري":

يحدث التصادم الحاد في الاستعجالات بين سرعة "الألم" وبطء "الإجراءات". وقد رصدنا كيف يتحول الانتظار إلى "انفجار كلامي" بمجرد رؤية طبيب يخرج ليدخن أو يتحدث في هاتفه؛ هنا يُعاش الانتظار كـ "إهانة للحق في الحياة". فالمنتظر في الاستعجالات لا يطلب "خدمة" بل يطلب "إنقاذاً"، وعندما يتحول هذا الإنقاذ إلى "طابور إداري" (استخراج الدفتر، انتظار النتائج من المخبر)، يشعر الفرد بأن "السيستم" (النظام) يقتل المريض ببطء، مما يجعل "الزمن المعلق" هنا هو الأكثر مرارة وقسوة على الكرامة.

ولمواجهة هذا الثقل، تبرز لغة "الاحتساب" و**"القدر"؛ فمثلاً هو الحال في السكن، يبرز التدين هنا كآلية دفاعية عبر عبارات مثل: "ربي هو الشافي"، "كل شيء بمكتوب ربي"، و"حنا نديرو اللي علينا والباقي على ربي"**. هذه الجمل تعمل كـ "مخدر لزمن القلق"؛ حيث يواسي المنتظرون بعضهم بقصص "الشفاء المعجز" أو "الصبر على الابتلاء"، مما يحول قاعة الانتظار إلى "فضاء طقسي" يتقاسم فيه الغرباء معاناتهم لتقليل وطأة الزمن الذي يمر ثقيلًا كالجبل.

4.3. اللقاء العابر واللقاء المتكرر: من توتر اللحظة إلى تراكم التجربة

إذا كان الزمن المعلق يشكل القاسم المشترك بين مختلف فضاءات الانتظار، فإن كيفية عيشه تختلف بشكل جذري باختلاف طبيعة اللقاء الذي يطره، وهو ما تكشفه المقارنة الدقيقة بين ما يمكن تسميته "اللقاء العابر" و"اللقاء المتكرر". إذ يمكن تبيان هذا التمايز من خلال رهانات الانتظار المختلفة؛ ففي أقسام الاستعجالات الطبية يتحول الانتظار إلى رهان "بيولوجي" وجودي صراعه مع "الزمن الحيوي"، وتتجلى فيه "جغرافيا الألم" عبر روائح المرض وأنين الاستغاثة. بينما في مراكز البريد يطغى رهان "السيولة المادية"، حيث التفاعل "تكتيكي" ويقظ للحفاظ على الدور. أما في مقرات السكن الاجتماعي، فيكون الانتظار "رهاناً مصيرياً" لاستعادة الاعتراف بالمواطنة، فيتحول المكان إلى "برلمان للرصيف" وتتشأ فيه علاقات "استراتيجية" وتحالفات مؤقتة.

ففي الفضاءات التي يكون فيها اللقاء عابراً—كما في مراكز البريد أو أقسام الاستعجالات الطبية—يعاش الانتظار بوصفه تجربة ظرفية، مشحونة بعدم اليقين، ومحدودة الأفق، حيث ينخرط الأفراد في وضعية ترقب مكثف دون أن تتاح لهم فرصة بناء استراتيجيات طويلة المدى للتعامل مع الزمن. في هذه الحالة، يصبح الهمّ الأساسي هو تقدير المدة المتبقية، قراءة حركة الطابور، ومراقبة الإشارات الصغيرة التي قد تدل على اقتراب الدور، مثل نداء رقم قريب أو تحرك مفاجئ في الباب. وقد عبّر أحد المشاركين عن هذا القلق بقوله: "المشكل ماشي في الطول... المشكل ما تعرفش قداش باقي"، وهو قول يكشف أن الغموض، أكثر من المدة نفسها، هو ما يجعل الزمن ثكياً ومربكاً. وفي هذا السياق، يلجأ الأفراد إلى آليات ثقافية لإعادة تأطير التجربة، من بينها تداول الأمثال الشعبية التي تعمل كأدوات لضبط الانفعال، مثل "القلقة من الشيطان" أو "بالرزنة تتباع الصوف"، وهي عبارة لا تُستخدم فقط للتخفيف من التوتر، بل لإعادة إدخال التجربة ضمن أفق أخلاقي يجعل الصبر قيمة اجتماعية مرغوبة. غير أن هذا التأطير لا يلغي التوتر الجسدي الذي يظهر عبر حركات لا إرادية: تحريك القدمين، النظر المتكرر إلى الساعة، أو محاولة تغيير المكان داخل الفضاء دون مغادرته، في محاولة لاستعادة إحساس جزئي بالتحكم في وضعية لا تسمح بذلك.

أما في اللقاءات المتكررة، كما في مقرات الدوائر الإدارية الخاصة بطالبي السكن الاجتماعي، فإن الزمن لا يُعاش كحدث منفصل، بل كمسار ممتد، تتراكم داخله الخبرة، وتتشكل من خلاله علاقات اجتماعية بين المنتظرين أنفسهم. هنا، لا يكون الانتظار مجرد عبور، بل يصبح جزءاً من الروتين اليومي، حيث يبدأ

الأفراد في التعرف على بعضهم البعض، وتبادل المعلومات، وبناء أشكال من التنظيم الذاتي تهدف إلى تقليل الغموض وإضفاء نوع من الاستقرار على الزمن المعلق. وقد أشار أحد المشاركين إلى هذا التحول بقوله: "في الأول تحي وتستننى... من بعد تولي تعرف النظام وتعرف الناس"، وهو قول يعكس انتقال الفرد من حالة الارتباك إلى حالة من التكيف المبني على المعرفة والخبرة. في هذه الفضاءات، تظهر ممارسات تنظيمية غير رسمية، مثل تعليق ورقة بأسماء الوافدين حسب ترتيب الوصول، أو الاتفاق الضمني على أولوية من حضر أولاً، وهي ممارسات تهدف إلى تعويض غياب الشفافية المؤسسية، وتوفير حد أدنى من العدالة داخل الطابور. كما تتشكل "تحالفات مؤقتة" بين الأفراد، حيث يتبادل المنتظرون المعلومات حول مواعيد الدخول، أو يحذرون بعضهم من تغييرات محتملة، أو حتى يدافعون عن ترتيب معين إذا تم خرقه. هذا التحول من الفردية إلى شكل من أشكال الجماعية المؤقتة يعكس ما يمكن تسميته بـ"اجتماعية الانتظار"، حيث لا يكون الزمن مجرد تجربة فردية، بل فضاء لإنتاج علاقات اجتماعية جديدة.

4.4- الحارس والموظف: السلطة الرمزية للمعلومة وإعادة إنتاج التراتبية

داخل هذه الفضاءات، يبرز فاعل يبدو، للوهلة الأولى، هامشياً، لكنه يلعب دوراً حاسماً في تشكيل تجربة الانتظار، وهو الحارس أو الموظف المسؤول عن تنظيم الدخول. فرغم أن هذا الفاعل لا يمتلك بالضرورة سلطة قانونية واسعة، إلا أنه يحتكر مورداً بالغ الأهمية: المعلومة. هذه المعلومة لا تتعلق فقط بترتيب الدور، بل بتفاصيل دقيقة حول من سيدخل، متى، ولماذا، وما إذا كان هناك تأخير أو تغيير في النظام، وهي معطيات لا تكون متاحة بشكل متساوٍ لجميع المنتظرين. هذا الاحتكار للمعلومة يحول الحارس إلى مركز ثقل داخل الفضاء، حيث تتجه نحوه الأنظار، وتُبنى حوله توقعات وسلوكيات مختلفة، تتراوح بين الثقة، التودد، أو حتى التوتر والخوف. ويبرز هنا دور "الوسيط" في تكريس "بيروقراطية غير رسمية" قوامها "الدنيا بالوجوه"، حيث يملك الحارس سلطة تجاوز التذاكر الرقمية لصالح العلاقات الشخصية.

ومن منظور أنثروبولوجي، فإن الموظف ذاته يعيش حلقة من "الدائرية في المعاناة"؛ فهو منتظر آخر يفرغ إحباطه من زمنه المعلق الخاص عبر إطالة زمن الآخرين، مما يبعدها عن صورة الموظف "الشريـر" النمطية لفهمه كجزء من بنية القهر الزمني. وقد عبّر أحد المشاركين عن هذه الوضعية بقوله: "هو اللي يفهم... إذا قالك اليوم ماكانش، خلاص تروح"، وهي عبارة تكشف أن الكلمة التي ينطق بها هذا الفاعل يمكن أن تعيد تنظيم الزمن بالكامل بالنسبة للمنتظرين. في هذا السياق، لا تكون السلطة قائمة على الإكراه المباشر، بل على التحكم في المعرفة، وهو ما يتقاطع مع تحليل بيير بورديو (Bourdieu, 1997, p. 273)، الذي يرى أن السلطة الرمزية تُمارس من خلال ما يبدو طبيعياً أو بديهياً، لكنها في الواقع تُخفي علاقات قوة غير متكافئة. كما أن طريقة توزيع هذه المعلومة ليست محايدة، بل قد تخضع لاعتبارات غير معلنة، مثل الألفة، طريقة الخطاب، أو حتى الانطباع الشخصي، وهو ما يفتح المجال أمام أشكال دقيقة من التفاوت داخل الطابور. فبعض الأفراد، ممن يمتلكون خبرة سابقة أو علاقة غير مباشرة مع الحارس، يظهرون هدوءاً وثقة، لأنهم يمتلكون "معرفة مسبقة"، بينما يعيش الآخرون في حالة من القلق المستمر

بسبب غياب هذه المعرفة. هنا، لا يعود الفرق بين الأفراد قائماً فقط على موقعهم في الطابور، بل على موقعهم في شبكة الوصول إلى المعلومة، وهو ما يعيد إنتاج تراتبية اجتماعية داخل فضاء يفترض فيه أن يكون متكافئاً.

4.5- السخرية كآلية مقاومة رمزية وإعادة امتلاك الزمن

في مواجهة هذا التعقيد، لا يبقى الأفراد في موقع الخضوع السلبي، بل يطورون استراتيجيات رمزية دقيقة للتعامل مع الضغط النفسي والاجتماعي الناتج عن الانتظار، من أبرزها السخرية، التي تظهر كأداة جماعية لإعادة تأطير التجربة وتحويلها من عبء فردي إلى مادة للتداول المشترك. فالتعليقات الساخرة التي تتردد داخل الطوابير، مثل "إذا جينا قبل الفجر لكان أسرع" أو "تحبسوا هنا حتى يجي العيد"، لا تُقال فقط من باب المزاح، بل تحمل دلالة أعمق، تتمثل في إعادة صياغة الزمن المعلق بطريقة تجعله قابلاً للتحمل. السخرية، في هذا المعنى، لا تغيّر الواقع، لكنها تغيّر طريقة عيشه، حيث تمنح الأفراد شعوراً جزئياً بالتحكم في وضعية لا يملكونها فعلياً، وتسمح لهم بتقاسم الإحباط بشكل جماعي، بدل أن يبقى عبئاً فردياً. وقد أشار بعض الباحثين في الأنثروبولوجيا الثقافية إلى أن مثل هذه الممارسات يمكن فهمها كأشكال من "المقاومة اليومية"، التي لا تسعى إلى تغيير النظام، بل إلى التعايش معه دون الانكسار. وفي هذا السياق، يمكن اعتبار السخرية شكلاً من أشكال "إعادة امتلاك الزمن"، حيث يُعاد إنتاجه عبر اللغة، لا عبر التنظيم الرسمي.

ويُضاف إلى ذلك بروز الهاتف المحمول كفاعل تقني يتيح "الهروب الذهني" وخصخصة الزمن العام؛ حيث ينزاح الأفراد من فضاء الطابور الفيزيائي إلى عوالم افتراضية تعيد صياغة الإحساس بالملل، مع بقاء الهاتف سلاحاً رمزياً للتوثيق (المواطنة الرقمية) يحد من تعسف السلطة البيروقراطية ويوزع موازين القوى مجدداً.

4.6. تديين الانتظار: تحويل الزمن إلى معنى أخلاقي

إلى جانب السخرية، يبرز "التديين" كإطار رمزي قوي لإعادة تأطير تجربة الانتظار؛ حيث يتم إدخال "الزمن المعلق" ضمن أفق ديني يمنحه معنى أخلاقياً ويحوّله من عبء إلى فرصة. فعبارة مثل "الأجر على قد المشقة" أو "استغل الوقت في الذكر والاستغفار" لا تُستخدم فقط للتسلية، بل تؤدي وظيفة عميقة تتمثل في إعادة تفسير الانتظار بوصفه "اختباراً" أو "عبادة"، مما يسمح بتحمّله دون شعور دائم بالظلم. يظهر التديين هنا كإطار يمنح الانتظار معنى أخلاقياً عبر "الاحتساب"، وهو ما يؤدي وظيفة مزدوجة: التكيف النفسي من جهة، وإعادة إنتاج الوضع القائم من جهة أخرى، عبر تحويل المسؤولية من مستوى (التنظيم المؤسسي) إلى مستوى (الفرد) الذي يُطالب بالصبر والاحتساب.

بهذا المعنى، لا يكون التدين مجرد ممارسة روحية، بل جزءاً من البنية الثقافية التي تنظم العلاقة مع الزمن، وتُعيد تعريف ما يُعتبر مقبولاً أو غير مقبول داخل فضاءات الانتظار. وهو ما يحيلنا إلى أطروحة محمد أركون حول دور "المخيال الديني" في تشكيل السلوك الاجتماعي (أركون، 1999، ص 261)؛ حيث يُستخدم الدين هنا كآلية لـ "تسكين القلق الاجتماعي"، عبر تحويل العجز عن مواجهة المؤسسة إلى فضيلة أخلاقية متمثلة في الصبر، مما يعطل فاعلية الفرد ويحوّله إلى عنصر ممثل داخل بنية الانتظار. ويتجسد هذا بوضوح في قول المبحوث: "معلّش.. اللي فيها الخير ربي يجيبها، والانتظار هذا راهو 'صبر' نُؤجر عليه عند ربي". "هذا ما يمكن تسميته بـ 'تدين العجز'؛ حيث يتم نقل الصراع من مستوى (مواطن ضد إدارة) إلى مستوى (مؤمن يبتليه الله بالصبر). إن 'الاحتساب' هنا يعمل كآلية لـ 'تسكين الغضب' ومنع الانفجار، مما يحول الطابور من فضاء للمطالبة بالحقوق إلى 'مساحة طقسية' لا فضاء للمطالبة بالحقوق. ومع ذلك، لا ينبغي فهم هذا الاحتساب دائماً كخنوع مطلق، بل يمكن اعتباره نوعاً من 'التفاوض الصامت' مع السلطة؛ فالمواطن الجزائري، بذكائه الاجتماعي، يدرك أن إظهار 'الصبر الجميل' واللغة الدينية هو المفتاح الرمزي الوحيد لاستمالة عطف الموظف أو الحارس. هنا، يصبح التدين 'رأسماً رمزياً' يُستثمر في قلب الطابور لانتزاع اعتراف المؤسسة، حيث يتحول 'المؤمن الصابر' في نظر الموظف إلى شخص 'يستحق' المساعدة أكثر من غيره من المحتجين أو الغاضبين. إن الاحتساب يعمل كآلية مزدوجة: لـ 'تسكين الغضب' داخلياً، ولـ 'استمالة السلطة' خارجياً، مما يخدم في نهاية المطاف صمت المؤسسة واستقرار بنية الانتظار.

5. تفكيك 'فضاءات الميدان':

5.1. تداخل الفضاءات: في بريد المدينة :

لا يبدأ الانتظار داخل الجدران، بل هو 'سيرورة زحف' تبدأ من الرصيف؛ ففي مراكز البريد المركزية، يلاحظ الباحث تماهياً بين 'الفضاء العام' و'الفضاء المؤسساتي'، حيث يشكل الطابور الخارجي امتداداً بشرياً يعيق حركة المارة. تظهر قمة التناقض في 'الارتفاع الشاهق' للسقف مقابل 'الضيق الأفقي' للأجساد في الأسفل، مما يخلق حالة من 'الاغتراب الفضائي' والتلاصق القسري الذي يحول الانتظار إلى تجربة مادية ضاغطة على الحواس. وفي هذا الفضاء، تمثل 'النمرة (Ticket)' الوعد الرقمي بالنظام، إلا أن لحظة سماع 'السيستيم طاح' أو 'الريزو مكاش' هي لحظة العودة إلى 'الحالة البدائية' للطابور، حيث يسقط 'التعاقد التقني' ويبرز التدافع كوسيلة لاستعادة الدور، مما يكشف تبعية الفرد لـ 'زمن تقني' لا يملك السيطرة عليه. ويتجلى هذا الصراع بين الأجساد والسيولة في قول أحد المبحوثين: 'يا خويا رانا محشورين كي السردين، والكيشي (النافذة) بعيد تقول راهو في قارة أخرى!؛ وهو قول يجسد 'المسافة الرمزية'؛ فالموظف ليس بعيداً مكانياً، بل هو بعيد 'منالاً'، وعبارة 'محشورين كي السردين' تعكس إلغاء المسافة الشخصية وتحول المنتظرين إلى 'كتلة بيولوجية' فاقدة للخصوصية.

5.2 الاستعجالات الطبية: إيقاع الألم مقابل إيقاع الإدارة:

يتجلى في الاستعجالات الطبية، لا يُقاس الانتظار بالدقائق، بل بـ "أنين الآخرين". الملاحظة الميدانية تكشف أن هذا الفضاء هو الأكثر "توتراً"؛ حيث يمتزج زمن الانتظار بـ "زمن الاستغاثة". هذا "الضجيج الحسي" (صراخ، حركة نقالات، نداءات الأطباء) يجعل من الانتظار "حالة استنفار بيولوجي"، حيث يشعر المنتظر أن كل ثانية تمر هي خصم من "رصيد الحياة هنا" "تعدد الأزمنة"؛ زمن المريض (المتسارع بيولوجياً) وزمن الطاقم (المنضبط ببروتوكولات تقنية). الملاحظة ترصد "صمت القلق" الذي تكسره أنات المرضى أو حركة النقالات السريعة. الكراسي الحديدية الباردة هنا هي "وسيط مادي" ينقل برودة المؤسسة إلى جسد المرافق المنهك، ليعاش الانتظار كـ "تقرب للمجهول" خلف الأبواب المغلقة. وفي هذا السياق يصطدم "الزمن الحيوي" بالزمن البيروقراطي، كما يصفه أحد المبحوثين: "المريض راهو يغرر (يحتضر) والفرملي يقول جيب البون (التذكرة) واستنى التور.. ليرجونص (الاستعجالات) تموت هنا قبل ما تدخل!"؛ حيث يرى المبحوث أن "السيستيم" يقتل قبل المرض، والانتظار هنا ليس مجرد ضياع وقت، بل هو "تهديد بالعدم".

5.3. سيميولوجيا الأثاث والافتراش الجسدي في الدائرة الإدارية:

الأثاث هنا هو "فاعل صامت"؛ فالكراسي المحطمة أو انعدامها هو "محدد سلوكي" رصد ظاهرة "الافتراش" (الجلوس على الأرض أو الاستناد الجماعي للجدران)؛ أنثروبولوجياً، يعبر عن "تطبيع مع الانتظار الطويل"؛ حيث يتخلى الجسد عن وضعية "الاستعداد" (الوقوف) لينتقل إلى وضعية "الاستقرار المؤقت" على الأرض. هذا التحول الجسدي يعكس تأقلم الفاعلين مع زمن المؤسسة الذي يتجاوز طاقة التحمل العادية، فيتحول الرصيف إلى "فضاء منزلي مؤقت" (افتراش، أكل، دردشة). هذا الانتظار يتحول إلى "زمن تراكمي" يلتهم العمر، كما يلخصه قول المبحوث: "دفعنا الدوسي والراس كحل، وذرك شاب الراس وما بان والو.. الدوسي راهو 'رشا' (تأكل) في ليرشيف (الأرشيف)". "استعارة 'رشا الدوسي' تعكس 'زمن النسيان'؛ حيث يربط المبحوث بين شيب الرأس وتآكل الورق ليؤرخ لحياة ضاعت، مما يحول السكن من حق إلى "حلم مؤجل" يلتهمه الزمن بلا هوادة.

5.4. تفكيك "السلطة والرموز" (ديناميكيات القوة)

تعد النافذة الزجاجية (Le Guichet) أداة فرز بصري ومكاني "حاسمة في البريد والدوائر الإدارية، فهي تمنح الموظف "وضعية الرؤية الشاملة" بينما تحصر المواطن في وضعية "الانحناء الجسدي" لتقريب الأذن أو الفم من الثقب الصغير. هذا الفعل الحركي يُحلل أنثروبولوجياً كـ "طقس امتثال" مادي تفرضه العمارة البيروقراطية، حيث يضطر المواطن لـ "تقزيم" جسده ليتناسب مع الثقب الصغير. الزجاج هنا ليس للشفافية، بل هو "عازل رمزي" يسمح للموظف بممارسة "سلطة التجاهل البصري" (الانشغال بالأوراق) دون الحاجة لتبرير التأخير للمنظرين الذين يتحولون خلف الزجاج إلى مجرد "أطياف" تطالب بحقوقها بصوت مخنوق.

وفي أقسام الاستعجالات خاصة، يبرز الحارس كـ "موزع للأدوار الزمانية"؛ فهو ورغم عدم امتلاكه للمعرفة الطبية، إلا أنه يملك "مفتاح الدخول". هنا يتحول الانتظار من مسار "عادل وتقني" إلى مسار "تفاوضي وشخصي"، حيث ترصد الملاحظة الميدانية لجوء الأهالي لـ "لغة الاستعطاف القرابي" (يا وليدي، يا خويا) أو "الوجهة الاجتماعية" لاختراق جدار الزمن. الحارس في هذا الفضاء يمارس "سلطة تقديرية" تجعل الوصول للطبيب يمر حتماً عبر "رضا الوسيط" لا عبر استحقاق الدور، مما يرسخ في الوعي الجمعي فكرة أن "السيستيم" لا يُخترق بالنظام بل بالمحابة والمزاجية، ليصبح الحارس بذلك هو السد المنيع الذي يحمي المؤسسة من "قيضان الأجساد" المنتظرة.

6. النتائج ومناقشتها:

تخلص هذه الدراسة إلى أن الانتظار في المجتمع الجزائري لا يمكن اختزاله في كونه زمناً ضائعاً أو تجربة سلبية، بل يتبدى بوصفه «اقتصاداً أخلاقياً للزمن والكرامة»، وفضاءً اجتماعياً مركباً تتقاطع داخله آليات السلطة مع ممارسات الفاعلين الاجتماعيين. ففي هذا «الزمن المعلق»، لا يظهر الأفراد كنزوات سلبية، بل كفاعلين يشاركون—بوعي أو بدونه—في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي، سواء عبر الامتثال أو التفاوض أو المقاومة الرمزية. كما تكشف المعطيات أن تجربة الانتظار ليست نمطية، بل سياقية، تتراوح بين «الاستغاثة» في المستشفى، و«الرقابة المادية» في البريد، و«التنشئة الاجتماعية السياسية» داخل الإدارة

من جهة أولى، يظهر الزمن بوصفه ناقلاً لعلاقات القوة، حيث لا يقتصر التحكم فيه على كونه إجراءً تنظيمياً، بل يتخذ شكل «سلطة رمزية» تُمارس عبر احتكار المعلومة وإعادة ترتيب الأدوار. وتُظهر الملاحظات الميدانية أن غموض الإجراءات أو غياب الشفافية يدفع المنتظرين إلى مراقبة الموظف أو الحارس باستمرار، في سلوك يعكس انخراط الجسد في حالة من الانضباط الصامت. وبهذا المعنى، تتحول الحركات المتكررة والنظرات المتوجسة إلى تعبيرات عن تموضع الأفراد داخل بنية تُخضعهم لإيقاع قسري، بما يعزز الامتثال ويطبع مع علاقات الهيمنة.

من جهة ثانية، يتجاوز الانتظار كونه تجربة زمنية ليغدو اختباراً معيارياً للكرامة والاعتراف. إذ تُظهر الشهادات الميدانية أن الشعور بالإهانة يرتبط أساساً بغياب المعلومة وانعدام التواصل، أكثر من ارتباطه بطول مدة الانتظار. فحين يُترك الفرد دون تفسير أو توجيه، يتولد لديه إحساس بأنه «غير مرئي»، وهو ما يمس جوهر الكرامة كما تُفهم محلياً. وفي هذا السياق، يتخذ الانتظار دلالات متباينة: فهو رهان بيولوجي—وجودي في المستشفيات، وتفاعل تكتيكي في مكاتب البريد، ورهان مصيري للمواطنة داخل الإدارات، حيث يتحول الطابور إلى ما يشبه «برلمان الرصيف»، تُبنى فيه تحالفات ظرفية، ويتم فيه تبادل المعلومات والخبرات.

من جهة ثالثة، تكشف النتائج أن المنتظرين لا يستسلمون لهذا «العنف الهادئ»، بل يطورون استراتيجيات متعددة لإعادة امتلاك الزمن. فقد أظهرت المعطيات أن بعض الأفراد يؤطرون الانتظار ضمن منظومة

قيمة دينية، من خلال استحضار معاني الصبر والاحتساب، بما يمنح التجربة معنى أخلاقياً. كما برزت السخرية كآلية مقاومة رمزية، حيث تتحول التعليقات الساخرة المتبادلة بين المنتظرين إلى وسيلة لتفريغ التوتر وبناء شكل من أشكال التضامن الجماعي. إلى جانب ذلك، يتيح الهاتف المحمول إمكانية «الهروب الذهني» من ضغط المكان، خاصة في ظل بيئات مادية توصف برداءتها، وهو ما يعيد تشكيل تجربة الزمن ويخفف من وطأتها.

أخيراً، تكشف الملاحظة الميدانية عن تشكل «اقتصاد غير رسمي للزمن» داخل الطوابير، حيث تُمارس أشكال من التفاوض حول الأدوار، مثل حفظ المكان أو تبادل الأسبقية. وتُظهر هذه الممارسات أن الرقم الإداري لا يظل مجرد أداة تنظيمية، بل يتحول إلى مورد اجتماعي قابل لإعادة التوزيع، بما يعكس قدرة الأفراد على «أنسنة» الزمن المؤسسي وإعادة صياغته وفق منطق التفاعل والتعاون.

بناءً على ذلك، يتضح أن الانتظار يشكل فضاءً اجتماعياً معقداً داخله صياغة العلاقات بين الأفراد والمؤسسات، وتُختبر فيه القيم الأخلاقية والثقافية، كما يُعاد توزيع موارد رمزية أساسية، مثل المعلومة والاعتراف والكرامة. وعليه، فإن مقارنة الانتظار من منظور سوسيولوجي لا تكشف فقط عن آليات السلطة غير المرئية، بل تبرز أيضاً إمكانات الفاعلين في التفاوض وإعادة تشكيل شروط وجودهم داخل هذه البنى، بما يجعل من «الزمن المعلق» موقعاً مركزياً لفهم الديناميات الاجتماعية المعاصرة.

7. الخلاصة

تخلص الدراسة إلى أن الانتظار في المجتمع الجزائري هو "اقتصاد أخلاقي للزمن والكرامة"، وموقع تظهر فيه آليات السلطة لتشكيل الامتثال. إن تجربة الزمن المعلق ليست قالباً نمطياً، بل هي تجربة سياقية تختلف بين 'الاستغاثة' في المستشفى و'الرقابة المادية' في البريد، وإلى 'تنشئة اجتماعية سياسية' في الإدارة. ما يتضح من هذا التحليل هو أن الانتظار لا يمكن اختزاله في كونه زمناً ضائعاً أو تجربة سلبية، بل هو فضاء اجتماعي معقد تُعاد داخله صياغة العلاقات بين الأفراد، وتُختبر فيه القيم الأخلاقية والثقافية، ويُعاد توزيع الموارد الرمزية مثل المعلومة، والاعتراف، والكرامة. ففي هذا "الزمن المعلق"، لا يكون الأفراد مجرد منتظرين، بل فاعلين يشاركون في إعادة إنتاج النظام الاجتماعي، سواء عبر الامتثال، أو التفاوض، أو المقاومة الرمزية.

إن هذه الدراسة تكشف أن الانتظار يشكل ما يمكن تسميته بـ "اقتصاد أخلاقي للزمن"، حيث لا تُقاس الأشياء فقط بمدتها، بل بمعناها، وبمدى الاعتراف الذي تحمله، وبالطرق التي يُعاد من خلالها توزيعها بين الأفراد. وفي هذا الاقتصاد، تلعب الثقافة الشعبية، الأمثال، الدين، والسخرية دوراً أساسياً في تنظيم التجربة، وجعلها قابلة للعيش، رغم ما تحمله من توتر وعدم يقين. بهذا المعنى، لا يكون الانتظار هامشاً للحياة الاجتماعية، بل أحد أكثر مواقعها كثافة، حيث تظهر، في لحظاته البسيطة، أكثر آليات السلطة خفاءً، وأكثر أشكال التكيف الإنساني عمقاً. ويبقى السؤال مفتوحاً كقدر سياسي: هل الدولة "تتعمد" جعل الناس

ينتظرون لترويضهم وإنتاج الامتثال؟ وهل ستتجح الرقمنة في إنهاء هذا التعليق، أم أنها ستتقلبه إلى فضاءات افتراضية جديدة تعيد إنتاج التراتبية ذاتها؟.

الإحالات والمراجع:

أولاً: المراجع باللغة العربية

1- أركون، محمد. (1999). قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم؟. (ترجمة هاشم صالح). بيروت: دار الطليعة.

2- جابي، ناصر. (2008). الجزائر: الدولة والنخب. الجزائر: منشورات الشهاب.

ثانياً: المراجع باللغة الأجنبية

- 1- Auyero, J. (2012). Patients of the State: The Politics of Waiting in Argentina. 2-Durham: Duke University Press.
- 3- Bourdieu, P. (1980). Le sens pratique. Paris: Les Éditions de Minuit.
- 4- Bourdieu, P. (1993). La misère du monde. Paris: Seuil.
- 5- Bourdieu, P. (1997). Méditations pascaliennes. Paris: Seuil.
- 6- Crapanzano, V. (1985). Waiting: The Whites of South Africa. New York: Random House.
- 7- Fabian, J. (1983). Time and the Other: How Anthropology Makes Its Object. New York: Columbia University Press.
- 8- Foucault, M. (1975). Surveiller et punir: Naissance de la prison. Paris: Gallimard.
- 9- Hibou, B. (2011). Anatomie de la domination. Paris: La Découverte.
- 10- Honneth, A. (1995). The Struggle for Recognition. Cambridge: MIT Press.
- 11- Sayad, A. (1999). La double absence: Des illusions de l'émigré aux souffrances de l'immigré. Paris: Seuil.